
المنظومة
ALMANDUMAH

مسلسل انـدماج البربـر
في المجتمع الأنـدلسي


محمد حقي *

عند فتح الأندلس واستقرار المسلمين بها، كـان البربر يشـكلون أغلبيـة القادمين الجدد، فكان منطقيا أن يتصدروا هذا المجتمع الجديد ويحددوا كثيرا مـن معالمه، إلا أن شيئا من ذلك لم يحدث – على الأقل بوضوح – إذ لم يكـن ميزان القوة مرتكزا على العدد والكثرة. فالنموذج الجديد للمجتمع الإسلامي شرقا وغربـا أصبح يرتكز على نموذج عربي مطعم بتوجيهات الإسلام وتعاليمه. وهذا يفـرض على كل الجماعات التي تدخل الإسلام أن تندمج في هذا النموذج، ولم يكن البـربر استثناء في ذلك. فما هي الوسائل والمراحل التي مرت منها هذه العملية ؟ ومن أجل تأطير كلامنا وحصره والابتعاد عن العموميات اخترنا أن نتوقف عند ثلاثة أسـر بربرية يفترض أنها حققت الاندماج، وهي أسر "بنو الزجـالي" و"بنـو ذي النـون" و"بنو أبي عيسى". ومن خلال تطورها يمكن استنتاج بعـض العنـاصر الخاصـة بالموضوع.

استعراض لمراحل اندماج أسر العينة .

أســرة بني الــزجالــي:

تختلف المصادر حول أصل هذه الأسرة، فابن الفرضي يرى أنها من بـتر البرانس دون تحديد اسم القبيلة أو العشيرة(1). وينسبهم ابن حيان وابن سعيد إلى بني

* أستاذ باحث من ورزازات

يطفت من نفزة(2). أما ابن حزم فيعتبرهم من مديونة(3). ويرى ابن خلدون أنهم من ورفجومة(4). وتتفق هذه الآراء حول انتمائهم إلى البتر وبالذات إلى زناتة، لكنها تختلف حول اسم القبيلة أو العشيرة، ورغم إقرارنا بشهرة هؤلاء المؤرخين في دقة النقل والتحري، فإننا نرجح ما ذهب إليه ابن حزم لتخصصه في علم الأنساب، وهو يؤكد أن بني الزجالي من مديونة.

يبدو أن هذا الفرع من مديونة قد عبر إلى الأندلس في دفعة طارق بن زياد أو التي جاءت بعدها، مع ترجيح الدفعة الثانية بناء على الموطن الذي نزلوه وهو تاكرنا، ما دام أغلب مرافقي طارق قد نزلوا في الثغور الشمالية(5). ويبدو أن أعداد هذه الجماعة كانت كبيرة، بحيث تكفي لكي تعيش في ظروف عادية وتحمي نفسها دون أن تحتاج إلى موالاة إحدى القبائل العربية، كما أنها قد تكون حصلت على أراضي جيدة تمكنها من جمع ثروة ساعدت مؤسس هذه الأسرة على التعلم والمشاركة في حركات السلطة المركزية كلما دعا إلى ذلك داعي الجهاد أو الفوضى (الثورات والاضطرابات الداخلية).

يدعى مؤسس هذا البيت (آل الزجالي) محمد بن سعيد، ويضيف ابن حيان أن اسمه وارشكين ويعرف بحمدون ويلقب بالأصمعي(6) "لعنايته بالأدب وحفظه للغة، وكان من أقوم أهل زمانه بها، وكان له حظ وافر من البلاغة ونصيب حسن من صوغ القريض"(7). و"كان محمد بن سعيد هذا من أحد عجائب الدنيا في قوة الحفظ، يضرب بحفظه الأمثلة".(8). ويذكر أن أحد الشعراء جاءه مادحا فحفظ شعره وهو يلقيه ومازحه بإنكار كون القصيدة من نظمه قبل أن يخبره بالحقيقة(9). وواضح أن محمد بن سعيد هذا قد قضى وقتا طويلا في التعلم والتلقي رغم أننا لا نملك معلومات حول مشايخه وأماكن تعلمه.

كان أول اتصال لمحمد بن سعيد بالأمويين يعود إلى إحدى غزوات الأمير عبد الرحمان II (206هـ / 822هـ – 238م / 853م)عندما تعثرت به دابته فامتثل ببيت شعر لم يتذكر سوى عجزه، فافتقد الصدر عند كل رجال المعسكر، فلم يجده إلا عند محمد هذا(10). فاستدعي إلى السرادق "فأعجب الأمير ما كان عنده واستخصه ثم استكتبه بعد حين لسره"(11). وقد عين في البداية كاتبا للوزراء ثم استعفى، فعينه الأمير في كتابته الخاصة(12) حيث استمر حتى وفاته عام 228هـ / 844م أو 232هـ / 848م(13).

تمكن محمد بن سعيد بدخوله في خدمة الأمويين من الالتحاق بأشراف الدولة، وأسس بيتا من بيوت الشرف بقرطبة(14). وانتقل إلى قرطبة وفشا فيها نسله وصار لهم ربض خاص ومقبرة بالمدينة(15). وسيتعاقب أبناء الزجالي على كتابة الدولة والوزارة حتى وفاة آخر ممثليهم في الجهاز الحاكم عام 375هـ / 986م (16).
وقد يبدو صعود محمد بن سعيد صدفة، إلا أن التمعن في تكوينه الأدبي الرفيع وقوة ذكائه وانكبابه على الدراسة وإتقان أسس مهنة الكتابة، يجعلنا نفترض أن يكون قد

وضع نصب عينيه تحقيق هذا الهدف، فتحين الفرصة التي واتته في هذه المناسبة وقد يكون قام بعدة محاولات فاشلة قبل نجاحه في هذه المرة. لقد كان سلاحه في فرض نفسه على المجتمع الأندلسي العلم وخاصة الثقافة الأدبية واللغوية، وكان أنجع سلاح حقق له الاندماج فيه وفرض مكانته وأسرته.

أسـرة بني ذي الـنون :

ينتمي بنو ذي النون إلى قبيلة هوارة(17). وينتسبون إلى حمير بالحلف(18). استقر جدهم السمح بن ورد بقرية أقاقلة بكورة شنت برية منذ جوازه مع طارق بن زياد(19). لكن الجد الذي تنسب إليه الأسرة كان يسمى زنون وهو اسم شائع في البربر، فتصحف مع مرور الزمان، وصار ذو النون العربي(20).

إن استقرار هذه الأسرة داخل عشيرة كثيرة العدد وفي منطقة الثغر الأوسط قد وفر لها ظروفا ملائمة لتشارك في حماية الحدود الإسلامية منذ وقت مبكر فاكتسبت من هذا العمل ثروة مادية ومعنوية. إذ جمعت الأموال وراكمت الأراضي وصارت من أغنياء الثغر، بل وتصدرت جماعتها وصارت من الوجهاء، وفي نفس الوقت كسبت شهرة واسعة في ميدان الحرب والفروسية والشجاعة، وهذه خصلة تلعب دور السحر في الأندلس عامة وفي الثغور خاصة، وبإمكانها أن تفتح لصاحبها كل الأبواب(21).

كان اتصال الأسرة بالسلطة الأموية على عهد الأمير محمد (238هـ / 853م – 273هـ /886م) عندما مر بمواطن بني ذي النون عند عودته من الثغر الأعلى، فمرض له خصي فتركه لزعيم الأسرة سليمان بن ذي النون ليمرضه فعالجه ثم حمله إلى قرطبة و"أجزل صلته وأسجل له على ناحيته وارتهن منه موسى ولده"(22). ولا تذكر المصادر تاريخ هذا التسجيل، إلا أننا نملك السنوات التي سافر فيها الأمير محمد إلى الثغور الشمالية. فقد قاد ثلاث حملات إلى طليطلة أعوام 239هـ / 854م و 240هـ / 855م و 244هـ / 858م(23). ولكنه خلال هذه الحملات كان يتوقف عند طليطلة والثغر الأوسط، والرواية السابقة تؤكد على انه اتصل ببني ذي النون عند عودته من الثغر الأعلى ، والرحلة التي قام بها إلى هذا الثغر كانت عام 259هـ / 873م(24)، ولذلك نرجح هذا التاريخ. وما ساعد على ذلك هو أن الحدث تم قبل 260هـ / 874م وهي السنة التي كلف فيها الأمير بني ذي النون بمعاقبة وتأديب طليطلة، وفي السنة التي قبلها كان الثغر مضطربا، في حين قبض على مطرف بن موسى بن قسي وبنيه وقتلهم في قرطبة عام 259هـ (25) وهذا يعني أن الأسر التي كانت تتعاون مع السلطة الأموية في الثغر قد صارت ضدها، فكان على الأمير البحث عن حليف جديد. ودون شك توصل بمعلومات عن قوة بني ذي النون، فافتعل حادثة الخصي لجلبهم إلى جانبه، فعين سليمان واليا في هذه السنة.

لقد تحقق لبني ذي النون حلم الدخول في أسلاك الدولة وأشراف الأندلس لذلك ستدخل الأسرة تاريخ الأندلس وتشارك في أحداثه بقوة منذ نهاية القرن 3هـ / 9م حتى ضم المرابطين للبلاد.

لقد تحقق الاندماج لبني ذي النون بفضل الثروة المادية الكبيرة والفروسية والقتال في الحروب ودعم السلطة الأموية.

أسرة آل أبي عيسى :

ينحدر آل أبي عيسى من فرع أصادة المصمودي من قرية لدية قرب قصر عبد الكريم شمال المغرب الأقصى(26)، وينفرد ابن خلدون بنسبتهم إلى مصامدة الأطلس الكبير(27) وهو خطأ منه كما أظهرت أصول الهجرات إلى الأندلس(28). وتتفق المصادر حول كون هذه الأسرة قد استقرت بالأندلس منذ الفتح غير أنها تختلف حول اسم أول من اجتاز منها. فالقاضي عياض يقول إنه يحي بن وسلاس وابن أخيه نصر بن عيسى ضمن حملة طارق بن زياد ثم التحق بهما كثير(29). أما ابن خلكان فيرى أن الداخل هو كثير بن وسلاس(30) ويوافقه كل من ابن الخطيب وابن عبد الملك(31). ويظهر أن أغلب الروايات تتفق حول كون كثير بن وسلاس هو الداخل مع طارق واستقر في قرطبة مشكلا إحدى الأسر الكبرى من الموالي البربر.

ارتبط آل أبي عيسى بليث كنانة بالولاء. وتختلف المصادر حول سببه فالبعض يرى أن وسلاس أسلم على يد يزيد بن عامر الليثي الكناني(32) ويرى آخرون أن آل أبي عيسى نزلوا بمنزل ليث كنانة فانتموا إليهم بالحلف(33). وكيفما كان سبب الولاء فقد حصل إما بالجوار أو الإسلام.

استقر آل أبي عيسى بقرطبة وسرعان ما شكلوا إحدى الأسر الكبرى في المدينة(34). وعند وصول عبد الرحمان الداخل إلى قرطبة عام 138هـ / 756م كان يحي بن كثير ممن استقبله من وجهاء قرطبة حيث خرج إليه، وربما بايعه، وحمله رسائل إلى أهل قرطبة يدعوهم فيها، دون شك إلى بيعته(35). وقد صار يحي من المقربين من الحاكم الجديد(36). وشغله عبد الرحمان I في السفارة وولاية الجزيرة وشذونة"(37) وسيموت واليا على الجزيرة عام 179 هـ أو 180هـ / 796م أو 797م. لكن مجد الأسرة وفرضها لنفسها على المجتمع الأندلسي لن يتحقق إلا على يد يحي بن يحي الليثي الذي ولد عام 151هـ أو 152هـ / 769م (38) وبدأ تعليمه في حلقات قرطبة العلمية(39) ثم رحل إلى المشرق ودرس على مالك بن أنس وتلامذته في الحجاز ومصر والقيروان(40). وعندما عاد من رحلته المشرقية استقر بقرطبة وبدأ يشق رحلة المجد والشهرة في عالم العلم بالأندلس، لكن أحداث الربض عرقلت مشاريعه لبعض الوقت(41). وبعد عفو الحكم الربضي عليه صار يحي بن يحي من بين من تدور عليهم الفتيا في قرطبة والأندلس عامة، بل صار زعيم المفتين(42). وارتبط انتشار المذهب المالكي بالأندلس باسمه وجهوده(43). ولما مات ترك

المشعل لأبنائه وحفدته فتداولوه حتى وفاة آخر من نبغ من هذا البيت عام 367هـ / 977م(44).

استغل آل أبي عيسى ثروتهم واتصالهم المبكر بالعرب وكذلك بالسلطة الأموية، ثم أساسا نبوغ زعيمهم يحي بن يحي في الفقه المالكي ليحصلوا على مكانة متميزة داخل المجتمع الأندلسي جعلت منهم أحد أشرافه ووجهائه.

استنتاجات عامة.

أظهرت دراسة تطور عملية اندماج الأسر أعلاه أن الأمر تطلب وقتا ليس بالقصير (ما بين 100 و170 سنة)، وهذا يبين بطئ العملية وصعوبتها، لكن أيضا الإلحاح والإصرار الذي واصل به البربر عملهم دون كلل أو ملل.

إن مواطن الأسر الثلاث : تاكرنا وقرطبة والثغر الأوسط، توضح أن عملية اندماج البربر كانت تحدث في كل المجتمع الأندلسي وفق وتيرة متشابهة، مع أن هناك فارقا زمنيا، إذ يلاحظ أن العملية كانت أسرع في المراكز الحضرية منها في العالم القروي (قرطبة = تاكرنا وشنت برية). كما أنها أسبق في الموسطة والجنوب وتأخرت بحوالي نصف قرن في الثغر الأوسط مما يوضح أن الهوامش كانت أقل تأثرا بما يشهده المجتمع الأندلسي من تطورات.

كانت بداية عملية الاندماج مع الفتح الإسلامي للأندلس، فكل الأسر التي درسناها شاركت في الفتح وحصلت على بعض ثماره من خلال الأراضي التي حصلت عليها والتي ستكون مصدر ثروتها وقوتها المادية. وهي أيضا قد كسبت دعما نفسيا تمثل في شعورها بحق الاستفادة من ثمار مجهودها، وأنها لا تقل عن القبائل العربية أهمية.

واتجه اهتمام هذه الأسر إلى تملك الأسلحة التي يتفاخر بها العرب. فحاولت الارتباط بالعرب برابطة الدم. فهؤلاء بنو ذي النون يدعون الأصل العربي من خلال إعلان انتمائهم إلى قبائل حمير اليمنية، أما بنو أبي عيسى فارتبطوا بالعرب بموالاة ليث كنانة والولاء يمنح المولى نفس الحقوق التي لمولاه خاصة إذا كان ولاء حلف أو إسلام. واتخذ الاهتمام بالتعريب شكل تبني أسماء عربية والتخلي عن الأسماء المحلية، فهذا محمد بن سعيد الزجالي يتخلى عن اسمه الأصلي وارشكين وبنو أبي عيسى ينسون أسماءهم المصمودية مثل وسلاس لصالح أسماء عربية، أما بنو ذي النون فحوروا الاسم البربري زنون ليصير ذو النون.

كانت الفروسية عنصرا أساسيا في النظام القبلي العربي والمجتمع الأندلسي أيضا، لذلك حظيت بعناية البربر بدورهم فبنو ذي النون فرسان شجعان يحمون الثغر من هجومات الأعداء، ومحمد بن سعيد الزجالي اتصل بالأمير عبد الرحمان الثاني أثناء مشاركته في حركة عسكرية، كما أن تعيين يحي بن كثير واليا على

الجزيرة يفرض أن يكون فارسا شجاعا كما هو متعارف عليه في خصال ولاة الأندلس في عصره.

حظي التكوين الثقافي بعناية خاصة من قبل مؤسسي الأسر موضوع الدرس حيث نجد يحي بن يحي الليثي يتفقه في المذهب المالكي في الأندلس والمشرق وصار من أكبر رواة الأندلس للموطإ وزعيم المذهب في البلاد. وكان محمد بن سعيد الزجالي يتقن البلاغة العربية والأدب والشعر وبلغت محفوظاته مستوى عاليا فاق به أقرانه. وسلاح العلم كان السلاح الناجع الذي فتح به هاذين الشخصان أقفال المجتمع الأندلسي المتعددة وصاروا ضمن رجاله وأشرافه.

حتى وإن كانت نتائج الخطوات السابقة ناجعة وناجحة ، فإنها لا تكفي لتحقيق الغرض المطلوب، إذ يفترض أن تحصل الشرعية السياسية التي يحيطها المجتمع الأندلسي بهالة من الاحترام والتقدير، فهي بمثابة مفتاح سحري يذلل كل الصعاب. وهكذا نجد البربر واعين بأهميتها فسارعوا للحصول عليها. فهذا يحي بن كثير يبايع عبد الرحمن الداخل ويقوم بالدعاية لسلطته في قرطبة حتى قبل سيطرته على السلطة. ثم تولى له بعد ذلك السفارة والولاية. وقبل ابنه يحي بن يحي أن يكون مفتيا وداعية لنظام حكم حفيده عبد الرحمن II مقابل الحصول على الزعامة العلمية في قرطبة والأندلس. ونفس المجهود سيبذله محمد بن سعيد الزجالي من أجل أن يتحول إلى كاتب لعبد الرحمن II ويصير من أشراف الدولة. ورغم تفوق آل ذي النون العسكري، فقد بحثوا عن شرعية السلطة الأموية فسعوا إلى أن يعينوا كولاة على منطقتهم مع أن هذا الأمر كان قد تحقق لهم فعليا ومنذ زمان. وبعد هذا التعيين صاروا يتفاخرون ويتنافسون مع أقرانهم البربر والعرب في الثغر والجزيرة كلها.

إن هذه الخطوات التي قطعها البربر من أجل تحقيق الاندماج في المجتمع الأندلسي توضح أن المجتمع الأندلسي مجتمع معقد إلى حد ما، إذ صارت تحكمه عوامل موجهة متنوعة. ولو حاولنا أن نصنفها لوجدنا أنها،على الأقل، تجد أصولها في المجتمع العربي والثقل الذي يمثله العرب، والإسلام وما حمله لهذا المجتمع، ثم وضعية الأندلس كثغر يفرض على سكانه تصرفات خاصة.

لعل دراسة مسلسل اندماج الأسر الثلاث في المجتمع الأندلسي، وكونها من مناطق مختلفة في الأندلس، تعطينا شرعية للحديث عن اندماج بربر الفتح في المجتمع الأندلسي مع انتصاف القرن 3هـ / 9م ، حيث صاروا جزءا منه وفقدوا الكثير من خصالهم البربرية، ولم يبق معروفا منها إلا تلك الخاصة ببعض الأسر الكبيرة والمشهورة.

الهوامش :

1) ــ نقلا عن ابن حيان، المقتبس، ج.2 ، لجنة إحياء التراث، القاهرة، 1971، ص. 172.

2) ــ نفسه، ص. 171 – ابن سعيد، المغرب في حلى المغرب، دار المعارف، القاهرة، ج. 1 ، ص. 330.

3) ـــ ابن حزم، جمهرة أنساب العرب، دار الكتب العلمية، بيروت ، 1983 ، ص. 500.
4) ـــ ابن خلدون، العبر، دار الفكر، بيروت، 1988 ، ج.4 ، 151.
5) ـــ أنظر أطروحتنا، البربر في الأندلس، إشراف الأستاذ محمد حمام، كلية الآداب الرباط، 1996، ص. 56.
6) ـــ ابن حيان، المرجع السابق، ج. 2 ، ص. 171.
7) ـــ نفسه ، ص. 172.
8) ـــ نفسه. ص. 173.
9) ـــ نفسه ، ص. 173 – 174 تذكرنا بحادثة مشابهة وقعت لأبي تمام شاعر المعتصم العباسي.
10) ـــ نفسه، ص. 172 ، ابن سعيد، المرجع السابق، ج. 1 ، ص. 330.
11) ـــ نفسه ، ص. 173.
12) ـــ نفسه.
13) ـــ نفسه، ص. 174 و216.
14) ـــ نفسه، ص. 170 – 171.
15) ـــ المقري، نفح الطيب، مطبعة السعادة، القاهرة، 1979 ، ج.5 ، ص. 366 ـــ ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، مكتب نشر الثقافة الإسلامية، القاهرة، 1954، ج.1 ، ص. 279.
16) ـــ عياض، ترتيب المدارك، مطبعة فضالة، 1982 ، ج.7 ، ص. 296. وعن أهم الأسماء في الأسرة أنظر : أطروحتنا السابقة، ص. 208 – 210.
17) ـــ ابن حزم، الجمهرة، ص. 500.
18) ـــ ابن حيان، المرجع السابق، ج.3 ، ص. 18.
19) ـــ نفسه.
20) ـــ ابن الخطيب، أعمال الإعلام، دار المكشوف، 1956 ، ج.2 ، ص. 177 – ابن عذاري، البيان المغرب، ج.3، ص.276 ـــ مفاخر البربر، المطبعة الجديدة، الرباط، 1932 ، ص. 43.
21) ـــ أنظر أطروحتنا السابقة، ص. 87 – 88.
22) ـــ ابن حيان، المرجع السابق، ج. 3 ، ص. 18 ـــ ابن سعيد، المرجع السابق، ج.2 ، ص. 11 ـــ ابن بسلم ، الذخيرة، دار الثقافة، بيروت، 1979، ج. 7، ص. 142 – 143.
23) ـــ ابن عذاري، المرجع السابق، ج.2 ، ص. 94 – 96.
24) ـــ نفسه، ص. 101.
25) ـــ نفسه.
26) ـــ ابن عبد الملك، الذيل والتكملة، دار الثقافة، بيروت، ج. 1 ، ص. 188 ـــ مفاخر البربر، ص. 60 ـــ ترتيب المدارك، ج.3 ، ص. 379.
27) ـــ ابن خلدون، المرجع السابق، ج.6 ، ص. 299.
28) ـــ أنظر فصل الهجرات من أطروحتنا السابقة.
29) ـــ عياض، المرجع السابق، ج.3 ، ص. 379.
30) ـــ ابن خلكان، وفيات الأعيان، دار الثقافة، بيروت، ج. 6 ، ص.143.
31) ـــ ابن الخطيب، الإحاطة، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1975، ج.4 ، ص.373 ـــ ابن عبد الملك، المرجع السابق، ج.3 ، ص.190.
32) ـــ عياض، المرجع السابق، ج.3 ، ص. 379.
33) ـــ ابن الخطيب، المرجع السابق، ج.4 ، ص. 373.
34) - ابن خلدون، المرجع السابق، ج. 6 ، ص. 299.
37) ـــ الخشني، المرجع السابق، ص. 348.
38) ـــ نفسه، ص. 247.
39) ـــ عياض، المرجع السابق، ج.3 ، ص. 380 ـــ الخشني، المرجع السابق، ص. 348.
40) ـــ نفسه.
41) ـــ نفسه، ص. 392 و 123 ـــ الخشني ، المرجع السابق، ص. 360 – 361.
42) ـــ ابن حيان، المرجع السابق، ج.2 ، ص. 180.
43) ـــ أنظر : أطروحتنا ، ص. 250 – 251.
44) ـــ كان يحي بن عبد الله آخر رجال هذا البيت وتولى قضاء بجانة والبيرة وخطة الرد. أنظر :عياض، المرجع السابق،ج.6 ، ص.108.